

آليات التحوّل أو المسخ في كتاب الحبة السّحرية لطاوس عمروش
-حكاية من منّا الأجل يا قمر؟ أنموذجاً-

Mechanisms of transformation or metamorphosis in the book The Magic Pill by
Taos Amrouche

Who among us is the most beautiful story, Moon? a model-

نبيل حويلي*

جامعة الجزائر 2 أبو القاسم سعد الله

nabil.haouili@gmail.com

تاريخ النشر: 2023 / 07 / 09

تاريخ القبول: 2023 / 06 / 13

تاريخ الارسال: 2023 / 03 / 31

الملخص:

نعني بالمسخ أو الانسلاخ التحوّل من هيئة إلى هيئة أخرى أو الانتقال من صورة إلى أخرى، وهي عملية تبعث على الدهشة والتعجب بكلّ تميّزها وتفردّها، وسنسعى في هذا المقال دراسة عملية التحوّل والمسخ في حكاية "من منّا الأجل يا قمر؟" في كتاب "الحبة السّحرية" (Le grain magique) للأديبة الجزائرية "طاوس عمروش"، والتي تمكّنت من البحث في قواعد الحكايات القبائلية الشّعبية والعجيبة، وغيرها من المأثورات الشعبية الأخرى. وسنحاول الإجابة على مجموعة من التساؤلات أبرزها: ماذا نعني بعملية المسخ؟ كيف تمّت عملية المسخ في الحكاية؟ كيف فرض سيطرتها على نفسية الإنسان؟ كيف تمكّنت من تهديده وهو الذي يرى نفسه كأننا مكتملا؟

الكلمات المفتاحية: الحكاية العجيبة، المسخ، التحوّل، الحبة السّحرية، منطقة القبائل.

Abstract:

By metamorphosis or metamorphosis, we mean the transformation from one form to another, or the transition from one form to another, and it is a process that causes astonishment and astonishment in all its distinction and uniqueness. "The Magic Pill" (Le grain magique) by the Algerian writer "Taos Amrouche", who was able to research the bases of popular and wondrous tribal tales, and other popular traditions. We will also try to answer a set of questions, most notably: What do we mean by the process of metamorphosis? How did the process of metamorphosis take place in the story? How did it impose its control on the human psyche? How was it able to threaten him when he sees himself as a complete being ?

Keywords: the strange story, metamorphosis, transformation, magic pill, Kabylie

*** **

كبير جدا، ممّا يجعل المنطقة تنفرد عن مناطق كثيرة أخرى في مجال الحكّي والسرّد والقص، ومن بين هؤلاء الباحثين نجد "طاووس عمروش" والتي ظلّت طوال حياتها وفيّة لثقافتها القبائلية وعملت بمساهمة أخيها "جان" على جمع حكايات عجيبة من منطقة القبائل، وترجمة قصائد وأغاني أمازيغية من التراث التقليدي الشفوي القبائلي. نظرا لما تزخر به منطقة القبائل من موروث شعبيّ ضخم، وثقافة شفويّة راقية، تكاملت مع مرور الزمن وبقيت أواصر سردها وقصّها سارية المفعول منذ العقود القديمة خاصة في تلك الليالي الطوال في فصل الشتاء البارد وأمام موقد النار المفعم بالدفء. إنّها ثقافة موسومة بمختلف الحكايات ولعلّ أبرزها حكاية التحوّل أو المسخ أو ما يمكن أن نطلق عليه أيضا بالانسلاخ أما في اللّغة الأجنبية فنجد المصطلح باسم (Métamorphose).

وسنسى في هذا المقال دراسة عملية التحوّل والمسخ من خلال حكاية "من ممّا الأجل يا قمر؟" في كتاب "الحبّة السّحرية" (Le grain magique) للأديبة الجزائرية "طاووس عمروش". كما سنحاول الإجابة على مجموعة من التساؤلات أبرزها: ماذا نعني بعملية المسخ؟ كيف تمّت عملية المسخ في الحكاية؟ كيف فرض سيطرتها على نفسية الإنسان؟ كيف تمكّنت من تهديده وهو الذي يرى نفسه كائنا مكتملا؟

هذا ولقد تمكّنت "طاووس عمروش" ومن قبلها والدتها "فاظمة أيت منصور عمروش" البحث في

مقدمة: تزخر منطقة القبائل شمال الجزائر بتراث شعبي ضخم وثقافة شفوية راقية، تعدّدت أشكاله واختلفت ألوانه. ولعلّ الحكاية العجيبة من أبرز هذه الأشكال تداولها بين النّاس لما تحويه من تجارب عميقة يعيشتها الإنسان، وتكشف عن مختلف المواقف التي شدّت انتباهه في مختلف مراحل حياته، فضلا على أنّها لا تكتفي بطرح القضايا بل تسعى لإيجاد حلول لها وفق نمط بسيط عادة ما يكون ناجعا. ولقد تداول الكثير من الباحثين المحليين والغربيين على جمع ميداني للحكاية الشعبية والعجيبة ونخصّ بالذّكر الألماني "ليو فروبينيوس" (Leo Frobenius) في عمل ضخم يضمّ أربعة أجزاء بعنوان: (Volksmarchen der Kabylen) أي "حكايات قبائلية"، والفرنسي "أوغست موليرياس" (Auguste Mouliéras) و"فان جنب" (Van Genep) بالإضافة إلى الأخوين "هنري باسي" (Henri Basset) و"روني باسي" (René Basset) وهما من أهم الباحثين الذين اهتموا بثقافة شمال إفريقيا والأدب الشفوية الأمازيغية. ونصل إلى أعمال الباحثة الأثنولوجية الفرنسية "كاميل لاکوست ديجردان" (Camille Lacoste Dujardin)، والتي كان لها عديد الإصدارات المرتبطة بالثقافة الجزائرية لاسيما القبائلية منها، ولعلّ أبرزها (Le conte Kabyle –étude ethnologique) أي "الحكاية القبائلية –دراسة أثنولوجية-". وبعدها عكف الكثير من الباحثين المحليين على جمع ودراسة الثقافة الشعبية القبائلية خاصة ما يتعلّق بموروث الحكايات العجيبة والشعبية والتي تتداول بشكل

أما "فريدريتش فون ديرلاين" (Friedrich Van Der Layne) -أحد أبرز الذين اهتموا بالدراسات في مجال الحكايات الخرافية كتب قائلاً: "الحكاية العجيبة البدائية تكوّنت في الأصل من أخبار مفردة نبعت من حياة الشعوب ومن تصوّراتهم ومعتقداتهم وبعد زمن تطوّرت هذه الأخبار لتتخذ أشكالاً فنية من طرف الزاوي الشعبي لتصير لها مجموعة من القواعد والأصول المحددة استخلصها المتلقي استخلاصاً وافياً"⁴ وتختلف الحكاية في ثلاث أنحاء وهي المادة والموضوع والطريقة وبالتالي فهذا الفن الأدبي وجه من أوجه المحاكاة، التي اتّخذت لنفسها مادة وهي السرد وموضوعاً يتجسّد في الحياة الاجتماعية والنفسية للمجتمعات البشرية الشعبية، وطريقة خاصة بها وهي النّظام الرّمزي المتمثّل في العجائبية والسحرية والسخرية واللاعقلانية... وغيرها من أدوات تجاوز الواقع والمنطق معاً. والحكاية الشعبية: "الخبر الذي يتّصل بحدث قديم ينتقل عن طريق الرّواية الشفوية من جيل لآخر، أو هي خلق حرّ للخيال الشعبي ينسجه حول حوادث مهمّة وشخصيات تاريخية"⁵. ونجمع في الأخير السمة المشتركة بين هذه التعريفات، وهي أنّ الشعب هو المبدع والمتلقي معاً، لهذا النتاج السردى القصصي أي الحكاية الشعبية، وتكون الركيزة والدّعمة الأساسية لها هي الرّواية الشفهية.

2.1 مصطلح المسخ أو التحوّل:

من الظواهر العديدة التي شددت انتباه الإنسان منذ أزمنة سحيقة، وجعلته يفكر فيها باستمرار، ويبحث لها عن تفسيرات وتعليقات: المسخ أو التحوّل. ولقد اهتمّ العديد من الدّارسين في هذا المستوى من الأصناف الأدبية ذات الحلي الأسطوري والصبغة

الحكايات الشّعبيّة، العجيبة، الخرافية وغيرها من المآثورات الشعبية الأخرى. ومن ثم حاولت أن تنقب في الكتب لعل شيئاً من هذه الحكايات قد يعرف طريقه نحو التدوين، وهو الأمر الذي تمكّنت منه الرّواية من خلال مجموعة من الحكايات جمعها في كتاب موسوم: بالحبّة العجيبة.

1. مصطلحا الحكاية والمسخ:

1.1 الحكاية:

احتلت الحكاية العجيبة مكانة عظيمة في حياة المجتمعات الإنسانية، كونها شديدة الارتباط بمواقف الإنسان ومداركه ومعارفه ومعتقداته إزاء ما يحيط به، وتطوّرت بتطوّر الجماعات المتداولة لها، حتى أصبحت تمثّل مرآة للخيال الفكري والنفسي والاجتماعي العاكسة للواقع المعاش من جهة ولشخصية الجماعة ونمط تفكيرها من جهة أخرى، حتى أصبح من الممكن جدّاً دراسة جماعة عرقية من خلال ما تتداوله من فنون الحكى والسرد والقص. لقد تكوّنت الحكاية في الأصل من حياة الشعوب ومن تصوّراتهم ومعتقداتهم، ثمّ تطوّرت هذه الأخبار واتّخذت شكلاً فنياً على يد القاص الشعبي، وأصبحت لها قواعد وأصول محدّدة¹ وإنّ الحكاية الخرافية الشعبية شكل أدبي تلتقي فيه ظاهرتان للطبيعة الإنسانية، ظاهرة الميل إلى الشيء العجيب، وظاهرة الميل إلى الشيء الصادق والطبيعي، فحيث تلتقي هاتان الظاهرتان توجد الحكاية الخرافية²، ويغلب على الحكاية الأسلوب الشفوي، والبسيط كما يعتمد على التكرارات، الأمر الذي يثير الرغبة الملحة لدى السامع في مواصلة عملية التلقّي³.

إلى قرد¹¹ بعدما أقدم على عمل شنيع بينما تحوّلت الفتاة إلى حجلة جميلة جراء تصرّفها اللائق.

2. نص حكاية "من منّا الأجل يا قمر؟"

« لتكن حكايتي جميلة وشيّقة وطويلة مثل طول الحزام الذي يُلفُّ حول الخصر:

في قديم الزّمان، كانت هناك امرأة آية في الجمال مثلها مثل القمر الوضاء والمنير، تعني بجمالها وتزيّن بأبهى الحليّ والمجوهرات والأحجار اللامعة والبراقة. وذات يوم صعّدت إلى مكان مرتفع وأخذت تنادي القمر قائلة: يا قمر من منّا الأجل؟ فردّ عليها قائلاً: إنّنا الأجل على الإطلاق ولكن تلك التي تحملينها في أحشائك ستفوقك جمالا. فامتلكتها غيره حادة وأقسمت ألا تترك ابنتها تعيش بسلام.

وضعت الأم بنتا غاية في الجمال، وكان وجهها وضاء كالنور وخبثها ورديين، لون شعرها كلون الذهب الخالص وسمّيت: "زجيقة" أي "الزّهرة" وحينما رآها الجمع اندهشوا لجمالها الفاتن، وقالوا لوالدتها: صحيح إنّك مثل الحسناء ولكن ابنتك هذه تفوقك جمالا، فشعرت الأم بسكين يمزّق بطنها ويتوغّل كالسّم الناصع في أعماقها. ولمّا بلغت الفتاة الثامنة من عمرها، اصطحبتها أمّها في نزهة إلى أطراف الغابة، وجلستا تحت ظلّ شجرة كبيرة فطلبت الأم من ابنتها أن تمسك بطرف كرة من الخيط وأن تمشي به حتى ينتهي الخيط، لتجد نفسها في وسط غابة موحشة ومظلمة، فشعرت بالخوف وأخذت تركض حتى وجدت نفسها أمام كهف، وما إن دخلت حتى صادفتها أفعى عملاقة تقطن داخل الغار. سألتها الأفعى قائلة: ما تفعلين هنا؟ وكيف وصلت إلى منزلي؟ ذعرت الفتاة

الدّينية، ولعلّ من أبرزهم الروائي الجزائري "Apulée" يكتب تحت عنوان: *L'âne d'or ou les Métamorphoses* كما احتواها "أفيد" في كتابه مسخ الكائنات الذي يتحدث من خلاله عن قصص كائنات استبدلت أجسامها بأجسام أخرى، وأخذت بعد أشكالها الأولى أشكالا جديدة.⁶ ونذكر أيضا في مقام التحولات رواية *Métamorphose* والتي أبدعها "كافكا".⁷ وكتاب ألف ليلة وليلة والذي يعتبر من أهم الكتب التراثية العربية المتميّزة بموضوع المسخ أو التحوّل.

ولقد ورد في لسان العرب بأنّ المسخ هو: "تحويل صورة إلى صورة أقبح منها، وفي التهذيب: تحويل خلق إلى صورة أخرى، مسخه الله قردا، يمسخه وهو مسخ ومسيخ، وكذلك مشوه الخلق. وفي حديث "ابن عباس": "الجان مسيخ الجن، كما مُسخت القردة من بني إسرائيل..."⁸

نعني بالمسخ -إذن- التحوّل والانتقال من صورة إلى أخرى، ولئن كانت هذه العملية بكلّ تميّزها وتفردّها تبعث على الدهشة والتعجّب تارة، والرغبة الملحة في تجربتها والتمكّن من آلياتها تارة أخرى، لذلك فلقد تعدّدت المفاهيم والرؤى حول موضوع المسخ أو التحوّل، وأجمعت جلّ المعاجم العربية منها والأجنبية على فكرة الانتقال من الصّورة الإنسانية إلى الصّورة الحيوانية.⁹ وفي الفكر الميثولوجي القبائلي نجد الكثير من النصوص تتحدّث عن المسخ خاصة ما أورده "ليو فروبينيوس" في عمله الميداني حينما أشار إلى نص "عجوز يناير وتحوّلها إلى صخر جليدي"¹⁰ بالقرب من جبال جرجرة، وأنّ هذا النصّ ثري بالأحداث المشوّقة خاصة ما يتعلّق بمسخ العجوز، كما نجد نصّا آخر يتحدّث عن مسخ طفل

الحيوانات كان يلتمها بشراسة، ولم تلبث طويلا حتى خرجت مسرعة.

تزوجت الفتاة "زجيقة" من الأمير ورزقا بصبي ذكر كان ببسالة أبيه وجمال أمه، ولكنه لم يلبث أن اختفي وكذا الحال لستة أبناء لم يعثر لهم أثر. واتهم الجميع المرأة وظنوا أنها غول من الغيلان تقوم بسرقة أبناءها وأكلها إياهم، فشعرت بحزن شديد خلا زوجها الذي كان بجوارها ليؤازرها. وذات يوم قررت أن تزور والدها/الأفعى، وحينما وصلت إلى الكهف وجدت أباه قد تحوّل من أفعى موحشة إلى رجل حسن المظهر، يطوف حوله سبعة صبيان وسيمين، ودودين، وديعين، ومسورين، يلعبون ويمرحون إلى جواره. سرّت المرأة لذلك المشهد وتيقّنت أنها لم تكن تحلم، وأدركت أنهم أبناءها الضالون الذين سلبهم الرجل الأفعى جزء ما صنعه به فيما مضى.

حكايتي مثل الوادي الجارف، رويتها لأبناء الأسياد الأجاود.¹² ترجمة: نبيل حويلي.

1.2 شخصيات الحكاية:

يمثل عنصر الشّخصية على اختلاف مستوياتها عنصرا هاما وفعالا في مجال الحكاية العجيبة، فهي تتحرك في سياق الأحداث وتتفاعل معها. وتختلف طريقة تقديم الشخصية من حكاية إلى أخرى، والتي تعتمد أساسا على ثقافة الراوي والتقنيات التي يستعملها كأن يميل إلى وصف الشخصية ومظهرها وحركتها أو أن يترك المجال للشخصية بأن تكشف عن نفسها. ولطالما اهتم قائل الحكاية ومبدعوها في وصف الشخصيات والإحاطة بكل ما يتعلّق بها من الناحية الجسديّة أو النّفسيّة

واندهشت من أفعى تتحدّث كالبشر، وقصّت له الفتاة قصّتها، فأدركت الأفعى مكيدة الأم، ورحبت بها في حضان بيتها لتعيش رفقتها شرطة ألا تجتاز عتبة البيت. وقامت بدورها تقصّ حكايتها على الفتاة قائلة: كنت فيما مضى رجلا سعيدا أعيش في بيت رحب رفقة أسرتي، وذات يوم وبينما كنت أمشي في البراري، دست قدمي ثعبانا، فغضب وسلّط سخطه عليّ وقام بتحويللي إلى أفعى كبيرة لأدرك مشقة العيش زحفا على البطن، واضطرتت إلى الفرار إلى الغابة أين تعيش الوحوش الصّارة.

كانت الأفعى تلي كلّ طلبات الفتاة من مأكل ومشرب وملبس، وعاشت مدلّلة، معزّزة ومكرّمة. فلما كبرت الفتاة، أخذت تخرج من الكهف شيئا فشيئا. وفي يوم من أيام فصل الرّبيع المشرقة كانت تتجوّل بالقرب من الكهف تروح وتغدو، إلى أن لمحها صياد فاندھش لجمالها وأخذ يسأل نفسه عمّا إذا كان الأمر حقيقة أم خيال، وقصّ رؤياه على أهل القرية وتساءلوا بدورهم عمّا إذا كانت هذه الفتاة من عالم الإنس أو الجنّ. ولما بلغ نبأ الفتاة الجميلة مسامع الأمير، قرّر أن يقتفي أثارها رفقة الصياد. بلغا كهف الغابة، واندھشا لرؤية أفعى عملاقة تخاطب فتاة مثل القمر وبل تفوت القمر. فاستفسر الأمير عن الفتاة وطلب يدّها من أبيها الأفعى الذي ربّاهما وسهر عليها حتى بلغت أشدّها. وقبل بعرض الأمير ليوذّعها بدمعة الفراق المؤلمة وأوصاها ألا تلتفت إلى الوراء وألا تعود أدراجها أبدا، ولكّتها لم تستمع إلى وصايا والدها، فعادت إلى الكهف لتسلّم عليه مجدّدا ووجدته ملطّخا بدماء مجموعة من

والأحجار وأخرى تحيي في الماء والتي تتوارى حول البحيرات والبرك والآبار والعيون، وأخرى تعيش قرب البيت حيث يعيش الإنسان.

لقد قُصت حكايات شعبية عديدة حول الأفعى، ولعلَّ أبرزها ما رواه "الطبري" إذ يقول: "كانت الأفعى تعيش في جنة النعيم، تأكل ما تشتهي وتغدو أينما شاءت. وذات يوم جاء إليها إبليس (لعنه الله) ساعيا يطلب منها إغواء حواء وآدم ليأكلا من الشجرة التي حرّمها الله عليهما ونهاهما من الاقتراب منها وبالتالي من أكل ثمارها. نجحت الأفعى في عمليتها فأنزل الله سخطه على الجميع وأمر الجميع بأن ينزل على الأرض ليعيشوا كالأعداء بعضهم لبعض. وكجزء على فعلة الأفعى قام الله بمسحها وجعلها تسعى زحفا على بطنها بعدما كانت تمتلك حوافر تنتقل بواسطتها"¹³. وكانت التفسيرات الإسلامية تعتبر الأفعى من أرقى الحيوانات وأجملها على الإطلاق، قبل أن يغدر بها الشيطان لتصير من أقبح مخلوقات الله وأذمها في عيون البشر.¹⁴

ويربط أهل منطقة القبائل الأفعى أو الثعبان بالشيطان ويقال بأنّها تُخبئته على متنه ويطلقون عليه تسمية الشيطان بينما يطلق بني الثعبان على البشر تسمية: "أپزكن أقرّي" أي صاحب الرأس الأسود، وهو عنوان لحكاية قبائلية عجيبة تدور تفاصيلها بين الإنسان والأفعى ومجموعة من الحيوانات الأخرى.

إنّ تحوّل الأفعى الأوّل لا بدّ وأنّه لقّنها درسا قاسيا، ومنحها قدرة مسخ الكائنات الحيّة الأخرى لاسيما الإنسان هذا العدو اللدود الذي تسبّب -

أو الاجتماعية. تتراوح الشخصية الرئيسيّة في هذه الحكاية بين الفتاة الجميلة صاحبة الشعر الأشقر، والقد المستوي والخددين الورديين والعينين الزرقاء، والبياض الناصع. إنّ شخصية الفتاة هادئة ورزينة لم تستسلم لوالدتها التي رمت بها في أعماق غابة موحشة بل أخذت تبحث لنفسها عن مأوى تقضي فيه الليل بعيدة عن ظلامه الدامس والوحوش الضارة، إنّها شخصية ذات ملامح قويّة لم تفقد الأمل رغم اختفاء أبنائها السبعة. وبين شخصية الرّجل/الأفعى التي تميّز بروح الأبوة، فهي ربت الفتاة تربية مثالية، علّمتها خبايا الدنيا وخفاياها لتعيش معها حلّو الحياة ومرّها. كما برزت معالم بعض الشخصيات الثانوية كالأم التي لم تطق جمال ابنتها وحاولت التخلّص منها لكي تحافظ على صدارتها في مملكة الجمال رفقة القمر، وشخصية الأمير الذي فتن بجمال الفتاة فأصرّ على والده السلطان بأن تكون زوجته وبالتالي أميرة تترجّع رفقة الأمير على عرش المملكة، وتجدر الإشارة إلى وجود شخصية العجوز "سُتوت" التي تعي بكل الأمور ويرد ذكرها في العديد من الحكايات وقامت بأعمال كثيرة لصالح الإنسان إذ كانت تلقن له دروسا في العيش والحياة والجميع يكتن لها الاحترام، ولكّنها من جهة أخرى وحينما كبرت وشاخت قامت بالكثير من الأعمال الشريرة وأصبح الجميع يخاف منها ويتمنى هلاكها.

2.2 دلالات الرّمزية للأفعى:

إنّ الأفعى هو ذلك الحيوان الذي يزحف على جسده، ويبدو أنّ تواجدّه في البيئة القبائلية كثير، نظرا لتنوّع تضاريسها من جبال وسهول وتلال ومنخفضات، وأيضا لتنوّع فصولها كونها منطقة تنتهي إلى مناخ حوض المتوسط المعروف بفصوله الأربعة، وهناك أفاعي تعيش في الغابات والصّخور

بشكل غير مباشر- في تحويلها وهبوطها من جنّة الخلد أين كانت تنعم إلى الأرض أين صارت تزحف.

ترمز الأفعى إلى الخطيئة والخيانة والمكر، إنّها خصم الإنسان العنيد، تهاب منه وتبتعد لتختبئ خلف الصخور والأحجار والأشجار وفي أعماق الأرض.¹⁵ ولقد سبق للباحث الأنثروبولوجي الفرنسي "جيلبير دوران" (Gilbert Durand) في دراساته حول الثعبان¹⁶ تفسير أنساق ورموز هذا الحيوان، ويرى في هذا الصّدّد: أنّ الثعبان واحد من أهم رموز الخيال البشري، ويرى أن سائر الميثولوجيات على سطح الأرض تكشف عن استمرارية وتعددية رمزية الثعبان، والتي تندرج في إطار ثلاث فئات تنضوي كلّ واحد منها ضمن كوكبة الرّموز الزراعية القمرية، وهذه الفئات الثلاث هي: تقلّب الزمن والخصب واستمرارية النّسل (الإحياء من جديد).

فأمّا الأولى أي "رمزية تقلّب الزمن" هي التي تتجسّد في صورة الثعبان الذي هو في نفس الوقت حيوان متحوّل يبدّل جلده باستمرار دون أن يتغيّر داخليا، ويلتقي بذلك مع مختلف الرّموز الحيوانية للقاموس الحيواني القمري، هذا ويمثّل الثعبان في الوعي الأسطوري الرّمز الأوّل للدورة الرّمزية، ذلك أنه يجدّد نفسه مع القمر.

وأما الاتجاه الرّمزي الثاني والذي يمكن أن تأخذه صور الثعبان أيضا فهو توسيع لقدرات الديمومة والتجدّد المختبئة وراء نسق العودة، والثعبان هو رمز للخصب وهو ينتمي إلى الحيوانات القمرية الأثوية، وهو أيضا يمثّل ذكورة الرّجل لأن شكله المطاوع عمودي مما يسهل الانتقال من التناسل إلى نسق الخصب، فهو -إذن- رمز ينقلب من الأثوية إلى

الذكوري وهذه الطواعية الجنسية إنّما تعود بنا إلى الخنثوية القمرية.

وأما الرّمز الثالث والأخير لصورة الثعبان فيتمثّل في ظهوره كضامن لاستمرارية النّسل وبالتالي استمرارية الحياة، وهو بذلك حارس رهيب لأعماق أسرار الزمن أي الموت. ونخلص بذلك عن مجموع هذه الرّموز التي ذكرها الأنثروبولوجي "جيلبير دوران" (Gilbert Durand) إلى أنّ رمزية الثعبان تنطوي على السر الثلاثي للموت والخصب والأطوار.

ويتّخذ الثعبان في صورته منحنيين مختلفين ومتقابلين ومتناقضين تماما، ويرى الباحث المغربي "محمّد أوسوس" أنّه يتّخذ طابعا متقاطبا ثنائي التكافؤ (ambivalent)¹⁷ فهو من جهة يشكّل مصدر خطر قائم غير متناهي للبشر إذ يجسّد الشرّ ولكنته أيضا يجسّد الخير أحيانا كثيرة. إنّ الأفعى هو الكائن الوحيد الذي تحصّل على الخلود حينما سرقت نبتة كان البطل المؤله السومري/الأكادي "جلجاميش" قد جلبها من أعماق البحار، فبينما كان مشغولا في الترويح عن نفسه، وضع النبات جانبا وجاءت أفعى عملاقة والتهمتها بنهبٍ وشره كبيرين،¹⁸ لذا كتب عليها الخلود رفقة "أتنا بشتم" ذلك الرّجل الذي يعيش مبحرا عبر البحار والمحيطات، ويعود "جلجاميش" خائبا ومدركا أنّه لا مفر من الموت فهو مكتوب على البشر بينما يبقى الفناء سمة الآلهة، يقول تعالى: "كلّ وعليها فان ويبقى وجه ربك ذي الجلال والإكرام". سورة الرحمن، الآية 27. كما ترمز الأفعى أيضا إلى الصيدلة، فسّمه وبالرغم من نصاصته إلّا أنّه شفاء للكثير من الأمراض والمتوعكات والالتهابات التي تصيب جسد الإنسان.

أو لأنّها ساعدت الشيطان في مساعيه ضد آدم وحواء وهما يعيشان في الجنة.

3. افتتاح واختتام الحكاية:

تعتمد الحكاية الشعبية في أغلب الحالات على لازمة افتتاحية يؤديها الراوي، مثلما فعلت في ذلك "طاووس عمروش" قائلة: «فلتكن حكايتي جميلة وشيقة وطويلة مثل طول الحزام الذي يُلفُّ حول الخصر»²³ إنّ هذه الافتتاحية متواجدة لدى سائر الشعوب، وتختلف من منطقة إلى أخرى. ففي منطقة عزازفة مثلا تفتتح الراوية الحكاية قائلة: "أماشهُو** لتكن حكايتي جميلة وشيقة وطويلة مثل طول الحزام الذي يصل مجرى الوادي" ويردّ المستمعون بصوت واحد: "أهُو" وهو صوت يفيد التّداء والتساؤل والتنبيه. أمّا في فلسطين يبتدئ الراوي حكايته قائلا: "هان، هان، في قديم الزمان"،...

كما تعتمد الحكاية الشعبية أيضا على لازمة اختتامية تفيد بلوغ الرّسالة إلى مسمع المستمعين، ولقد وُرد في حكاية من منّا الأجلل يا قمر؟ مثل هذه اللازمة: "حكايتي مثل الوادي الجارف، رويتها لأبناء الأسياد الأجاود"²⁰ وتختلف هذه اللازمة بدورها من منطقة إلى أخرى، فالرواة في منطقة عزازفة يختتمون نص الحكاية قائلين: "حكايتي رويتها متبعة مسار الوادي، رويتها لأبناء الأسياد الأجاود، جلبت عرجون تمر وأكلناه سوية، فلينتقم الله من الذئب، أمّا نحن فليعفوا لنا" بينما تُختتم الحكاية في منطقة تيارت بالعبرة الآتية: "أذات النَّار النَّار، ونا أديت الطريق الطريق، كُلاتّ الديس، وأنا كُليتّ الزفيس"²¹ جميع هذه الصيغ توحى بمعاني متعلّقة إمّا بطبيعة الحكاية أو بوظيفتها وظروف أدائها، ويمكن أن

وتحدثت العرب قديما عن أسطورة الحيّة ذات الصفا التي أوفت لصاحب لم يف: "عندما فرغ ابن قارح من حديثه مع آدم عليه السلام، دخل روضة ليجد بها الحيات وهنّ يقفزن ويمرحن، فيستغرب لوجودهن ويتساءل عن ذلك فيقول: لا إله إلا الله وما تصنع حية في الجنّة؟ فينطقها الله -جلّت عظمته- بعدما ألهمها المعرفة بها جس الخلد فتقول: أما سمعت في عمرك بذات الصفا، الوافية لصاحب ما وفي؟ كانت تنزل بواد خصيب، ما زمها في العيشة بقصيب، وكانت تصنع إليه الجميل في ورد الظاهرة والغبّ، وليس من كفر للمؤمن بسبّ. فلما ثمر بودها ماله، وأمّل أن يجتذب أماله، ذكر عندها ثأره، وأراد أن يقتفي أثره، وأكبّ على فأس معملة، يحدّ غرابها للأملة، ووقف للساعية على صخرة وهم أن ينتقم منها بأخرى-وكان أخوه ممن قتلته جاهرته في الحادثة وقيل ختلته- فضربها ضربة. وأهون بالمقر شربة، إذا الرّجل أحس التلف، وفقد من الأنيس الخلف! لما وقعت ضربة فأسه والحقد يمسك بأنفاسه، ندم على ما صنع أشدّ الندم، ومن له في الجدة بالعدم؟ فقال للحيّة مخادعا-ولم يكن بما كتم صادعا- هل لك أن نكون خليين ونحفظ العهد؟ ودعاها بالسفه إلى الجلف، وقد سقى من الغدر بخلف. فقالت: لا أفعل وإن طال الدّهر، وكم قصم بالغير ظهرا! إني أجذك فاجرا مسحورا، لم تأل في خلّتك حوارا تأبى لي صكة فوق الرأس، مارستها بأس مراسي، ويمنعك من أربك قبر محفور، والأعمال الصالحة لها وفور"¹⁹ وجدير بالذكر أن حكايات الأفعى كثيرة التداول على ألسنة الشعوب وتتشابه فيما بينها وإن اختلفت في بعض أجزاءها، ذلك لأنّ الإنسان يرى في الأفعى عدوا إن كانت بسمها القاتل

نحصرها في الانفصال عن الواقع والاتصال بعالم الخيال وذلك في مستهل الحكاية، ثم الخطوة المعاكسة عند اختتامها. والمزاوجة بين ما هو دنيوي وما هو مقدّس، وبين ما هو جدّ وهزل.²² إنّها صيغ متناقلة عبر الأجيال، تصوّر الطابع الخيالي الذي تنفرد به مثل هذه الحكايات ممّا يجعلها تخلق نوعاً من التشويق في نفسية السامع المتلهّف.

4. خاتمة: ومن أبرز النتائج التي توصلنا إليها ما يلي:

- يكتنز كتاب "الحبة السحرية" في دهاليزه موروثاً شعبياً ضخماً، وثقافة شفوية راقية، أنتجت التراكبات الزمنية المتلاحقة، والحقب التاريخية المتعاقبة.
- تعبّر هذه الحكاية عن حالات مأسوية حيناً، وسعيدة الحين الآخر وحالات درامية لها صدى عميق، عمق الإنسانية نفسها.
- تقوم عملية المسخ على التحوّل والانتقال من صورة إلى أخرى، أي من صورة عادية إلى صورة عجيبة وغالبا ما تكون قبيحة، مرعبة تأبى العيش مع النَّاس والاختلاط بهم.
- أظهر نص هذه الحكاية طبيعة الإنسان المزدوجة وجهين متقابلين هما الخير والشرّ، ولاسيما في الوسط النَّسوي، حينما دبّرت الأم حيلة مكيدة للتخلّص من ابنها الوسيم.

*** **

الهوامش:

- ¹ ينظر: نبيلة إبراهيم، أشكال التعبير في الأدب الشعبي، دار غريب، ط3، القاهرة، 1993، ص79.
- ² André Jolles: Formes simples, Tr : Antoine Marie Buguet, Seuil, Paris, 2002, p230.
- ³ حورية بن سالم، الحكاية الشعبية في منطقة بجاية، دار هومه، ط1، الجزائر، 2010، ص51.

⁴ فريديتش فون ديرلاين، الحكاية الخرافية/نشأتها، مناهج دراستها، تر: نبيلة إبراهيم، مراجعة: عز الدين إسماعيل، مكتبة غريب، ط1، القاهرة، 1987، ص29-30.

⁵ محمّد فخر الدّين، الحكاية الخرافية بالمغرب: حكايات خرافية من التراث العربي -دراسات ومقاربات-، إصدارات معهد الشارقة للتراث، ط1، الإمارات العربية المتّحدة، 2018، ص72.

⁶ Voir : Ovide, Les Métamorphoses, Castor poche, Paris, 2003.

⁷ Voir : Kafka, Les Métamorphoses, Gallimard, Paris, 1997.

⁸ ابن منظور، لسان العرب، دارصادر، ط3، مج 3، بيروت، 1994، ص55.

⁹ ماجدة بن عميرة، التظاهرات الموضوعاتية لأسطورة التحول في كتاب اللّيلالي، منشورات مخبر الأدب المقارن، أعمال ملتقى الأدب والأسطورة، جامعة عنابة، 2007، ص36-37.

¹⁰ تروي الأسطورة أنّ الأمّ الأولى للعالم كانت تمتلك مزرعة بسفوح جبال جرجرة، وكانت ترعى قطيعها من الأبقار والمعز، وفي يوم من الأيام وبحلول نهاية شهر يناير الذي كان شهراً لطيفاً على غير عاداته، كانت وسط قطيعها منشغلة بغض اللبن، وكان الثلج قد تساقط منذ ثلاثة أيام فسعل جدّيّ بالقرب منها. لاحظت سعاله وابتسمت تهنأً بيناير خاطبة الجدي: "لا تخف، فييناير قد فات، ولا يمكن له أن يلحق لك الأذى!" ولما سمع "يناير" كلام العجوز غضب منها واعتبره شتيمة، وعلى الفور انطلق صوب فورار وقال له: "أرجوك أيها الأخ أعرنى اللّيل والتّهارلكي أقضي على عجوز العار والتي تنمادى كثيرا وأخذت تهنأً بي قائلة أنّي لم أعد أستطع أن ألحق بها الأذى!". فوافق "فورار" على الفور قائلاً: "خذ بدل اللّيل والتّهار سبعة أيّام وسبعة ليالٍ وعاقبها عقاباً قاسياً!" وبعدما اقترض الأيام من شهر فبراير، توجه صوب العجوز وخاطبها قائلاً: "لم أنته بعد، أيّها العجوز! عندي سبعة أيّام وسبعة ليالٍ إضافية أيّها المسكينة! وإذا لم تكفّ يمكنني أن أستزيد من فورار الغالي!" وبعد فترة بدأت الثلوج والبرد بالتساقط، وحلّت موجة من الصّقيع والبرد القارس واحتجبت الشمس وراء كثبان السّحاب الكثيفة، وحلّ الظلام في عز النهار. وانطوت العجوز على نفسها، وهي تمسك بالحبل الصّغير الذي كان يشدّ شكوة اللّبن. وبقيت صامدة ولم تبيد أيّة حركة كما فقد دواهبها القدرة على الحركة بسبب البرد الشديد. وفي اليوم الرابع تحوّلت العجوز وقطيعها إلى صخور بسبب الصّقيع والثلوج والبرد وتجمّدوا في نفس الوضعية التي كانوا عليها حينما فاجأهم العاصفة الهوجاء. ولا تزال أثارهم موجودة بسفح الجرف الذي يقع في سفوح جرجرة. ومنذ ذلك الوقت، صار شهر يناير الأشهر الأكثر ترويعاً للعجائز في السّنة واللّاني يخفن منه كثيراً، وخلال هذه الفترة تسقط الكثير منهن طارحات الفراش، ويفارقن الحياة. لمزيد من المعلومات: ينظر: ليو فروبينيوس، أساطير قبائلية في خلق الكون وتصور العالم، تر: نبيل حويلى، ط1، دار الأمل، تيزي وزو، 2020، ص46-47.

¹¹ لقد رُوّي الكثير عن الأعمال الشريرة التي قامت بها الأمّ الأولى للعالم. ويمكن لنا أن نروي ولمدّة أسابيع طويلة عن الشرّ الذي زرعت على سطح الأرض قبل أن يحولها شهر يناير إلى صخرة متجمّدة. في يوم من الأيام، وبينما كانت تمشي صادفت في طريقها طفلاً فخاطبته قائلة: "إنّه

²² عبد الحميد بورايو، الحكايات الخرافية للمغرب العربي (دراسة تحليلية في معنى المعنى لمجموعة من الحكايات)، دار الطليعة، ط1، بيروت، 1992، ص10.

وحيثما تكون أمام طبق من الكسكس لا يحوي على اللحم، عليك أن تأكل ذلك الكسكس حتى تشبع وإذا لم تجد أي قطعة من اللحم، فقم بإفراغ برازك داخل الطبق، هكذا ينبغي عليك أن تفعل في المستقبل!" فمضى الفتى في طريقه، وبعد فترة صادف فتاة تحمل طبقا من الكسكس، فاستوقفها قائلاً: "دعينا نأكل أنا وأنت من القصة"، فوضعت الفتاة الطبق على الأرض، وشرعت تأكل رفقة الفتى حتى شبعوا دون أن يعثرا فيه على أي قطعة من لحم. وقال الفتى: "لقد شبعت، والآن علينا أن ننقذ وصية الأم الأولى للعالم. لقد أكلت الكثير من الكسكس ولم أعثر على أي قطعة من اللحم، إذن سأبرز على بقية الطعام!" فصرخت الفتاة مستنكرة: "لا دعك من هذا!". وعبثا حاولت الفتاة أن تمنعه من القيام بالعمل الشنيع، لكنه لم يسمع إليها فأفرغ برازه على بقية الطعام. وقال لها: "عليك أنت أيضا التبرز على الكسكس!"، فامتنعت الفتاة وقالت: "لا، لن أفعل!" وغطت بقية الكسكس بثوبها. حاول الفتى الإمساك بها وإرغامها على التبرز على الكسكس، ولكنها هربت. ولما كان الفتى يلاحقها تحول إلى قرد، أما الفتاة فقد تحولت إلى حجلة بريش ناعم وحاول القرد اللحاق بها لكنها طارت نحو الجرف. لمزيد من المعلومات ينظر: ليو فروينبيوس، أساطير قبائلية في خلق الكون وتصوّر العالم، تر: نبيل حويلي، ص51-52.

¹² Voir : Marguerite Taos Amrouche, *Le grain magique (contes, poèmes, proverbes Berbères de Kabylie)*, François Maspero, Paris, 1981, pp39-45.

¹³ Voir : Tabari, *Chronique traditionnelle (de la création à David)*, volume : 1, tr : Hermann Zotenberg, Sindbad, Paris, 1993, p67-68.

¹⁴ Voir : Jean Paul Clébert, *Dictionnaire du Symbolisme animal (Bestiaire Fabuleux)*, Alain Michel, Paris, 1971, p361-362.

¹⁵ Voir : Jean Chevalier et Alain Gheerbrant, *Dictionnaire des symboles*, Robert Laffont/Jupiter, Paris, 1982, p872.

¹⁶ ينظر: جيلبير دوران، الأنتروبولوجيا: رموزها، أنساقها، أساطيرها، تر: مصباح الصمد، دار نينوى، ط2، دمشق، 2008، ص294-299.

¹⁷ ينظر: محمّد أوسوس، كوكرا في الميثولوجيا الأمازيغية، المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، ط1، الرباط، 2008، ص145.

¹⁸ ينظر: سندراس، ملحمة جلجاميش، تر: محمد نبيل نوفل وفاروق حافظ القاضي، دار المعارف، ط1، القاهرة، 1987.

¹⁹ أبو العلاء المعري، رسالة الغفران، تحقيق: عائشة عبد الرحمن، دار المعارف، ط2، القاهرة، 1990، ص130.

**** "أماشهو" أداة افتتاحية تبتدئ بها الحكاية القبائلية لإثارة التشويق.**

²⁰ Voir : Marguerite Taos Amrouche, *Le grain magique*, p39.

²¹ Nora Aceval, *L'Algérie des contes et légendes (hauts plateaux de Tiaret)*, Maisonneuve, Paris, 2003.